ولسنا محتاجين إلى شهادة شخصية من العقاد بما قرأ ومالم يقرأ ؛ فكل القرائن تدل على ما زعمنا .

كانت الغبطة بالحياة التى يسميها أحياناً باسم الحرية ، وأحياناً باسم الصدق ، أثيرة عند العقاد ، لا من أجل الخلاص من البلاغة فحسب ، بل من أجل المجتمع العربى كله . ولم يكن البعث يعنى فى جوهره شيئاً أكثر من تنمية هذه الحاسة ، وكشف العوائق المانعة . وربما استطعنا أن نقول على لسان العقاد أو بمنطقه إن البلاغة شبّه عليها الفرق بين البيان والعجز عن استيعاب المحسوسات . ومن ثم نقد العقاد شعراً كثيراً لأنه يحكى مجردات ولا يقيم صرحاً للمحسوسات التى تستوعب فى تعاطف وإعلاء . ولا شبهة فى أن هذا النوع من « الصروح » لم يكن فى مستطاع شىء قبل ثورة النقد الحديث .

لمثل هذا كان العقاد يستعمل لفظ اللغة أحياناً فى ازورار ؛ لأن اللغة تعنى عند كثيرين ما لا تعنيه هذه الفلسفة . كان لفظ اللغة عنده يعنى أحياناً البلاغة لا أقل من ذلك . ولذلك يتوجس العقاد من إحالة بعض معاصريه إلى لغة صنعت نظاماً محكماً يعوزنا أن نتبين الحرية الباطنة على الرغم منه .

ولا أدرى كيف يمكن أن يحمل استعمال لفظ اللغة فى تراث العقاد الواسع محملاً واحداً ؛ ولا أدرى أيضاً كيف نتجاهل ثورة العقاد على مفهوم المعنى الموروث من البلاغة . من أجل ذلك قال إن الشعر لا يقوم دائماً على معان . قد يقوم على حالات نفسية تعتبر فى سياقها كافية ، لأنها تقوم مقام الإحالات ، وتتمتع بموضوعية وثقة .

هذه فتنة اللغة أو فتنة السنين أو فتنة المواراة والغيب أو فتنة الهزيمة أو فتنة ضياع الإنسان . فكيف يمكن أن تعرف البلاغة على حقيقتها دون سند من فلسفة ناضجة . هذا هو صوت العقاد .

كان شوقى يعلم ببصيرته الشاعرة أن للذعر فتنة فى الشعر والبلاغة ، وأن نظام اللغة أو نظام عمود الشعر ـ إن استعملنا هذا اللفظ ، وافترضنا دائماً أن للشعر العربى أعمدة كثيرة لم تكشف بعد ـ أن بعض هذا النظام يستميل الذعر ويتلطف له ، ويتملقه أو يجمله . ماذا صنع شوقى فى البيت الذى نتناوله ؟ لقد استبقى الذعر من بعيد ، أو جعله بعداً سلفياً للمعنى ، أو جعله إطاراً خفياً ، ولكنه على كل حال موجود ، لعب